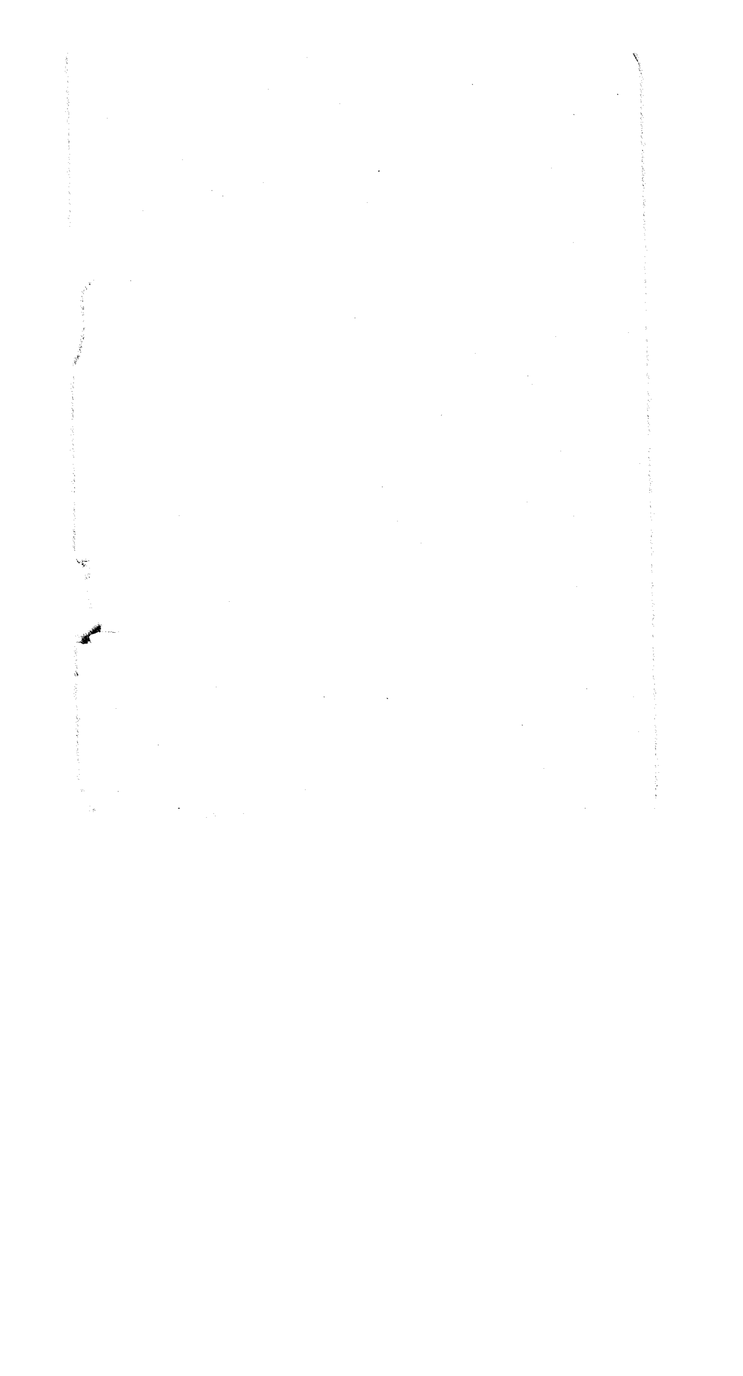
الليالى .. الطويلة

قصص

د. مرعى مدكور



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٥



الليـــالى الطويلة ..

•• قبل طلوع الشمس ؛ فرشت الحكاية نجعنا وطارت للنجوع المجاورة •• ودارت الألسنة : قالت ان أبى انكسر ظهره ، وبرك ، ولم يبق منه سوى عينين جافتين لامعتين ••

وأصبحت دارنا مثل قادوس الطحين ، تملأ بالناس وتفرغ من النـاس وترن فيها الأصـوات والمصمصات والأسى على خسارة المرماح ••

الذى ينظر الى أبى والذى يعلن عن وجوده باقتراح •• والـذى يضرب كلمـة فارغـة •• وكثر الكلام •• اسماعيل عبد الحافظ ــ حامل كلام الله ــ قال : « نقعد قعدة عرب » ضمتنى أمى اليها وبصت اليه وسمعتها تسبه وتزوم فى غل :

ــ « المفجوع •• موت وخراب ديار •• ! •• »

•• أتعاطف مع أمى وأكره اسماعيل الذى يريد خراب ديارنا كما تقول أمى لكننى أحتار وأفكر : ومن أين يأتى خراب الديار ما دام الرجال سيقعدون قعدة

عرب فى باحة دارنا وسننحر الابل وتعلق الكلوبات فى لحم شجرة الجميزة ويسهر الناس للصباح وتكون ليلة من ليـالى أبى .. !.. أرفع وجهى الى أمى وأسكت وأتشـاغل بالذين ينسحبون الى بيوتهـم وأعمـالهم ورؤوسهم مائلة على بعضها تقترح وتخمن وتجتر وتترحم على أيام الزمان الفائتة .. علت الشمس وزادت الحركة على دارنا .

تكوم أبى ــ لأول مرة ــ مقرفصا وقد دفن ذقنه فى راحة يده ، وكلما رفع وجهه الشاحب أرعبتنى عظام الوجه البارزة .. أدفن نظرى وأبكى فى نفسى وأتحسر وأقرأ له :

« لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ».. ولـما أرفع وجهى الى أمى أجدها هى الأخرى تبص لأبى وهى ترتعش من الخـوف ، حتى أختى « مـريم » المغبونة ؛ مسكينة ؛ انكسر خاطرها .. زوجها يخلبص مع عباد الله ، وآخر النهـار يغرقل لها ، ولـما جاءت تريح بدنها وجدته أمامها ..

غاظني عمى وهو يركب أبى الحق لأنه لم يبندق ..
وجلس وطالت قعدته ولم يسكت أبدا عن سرد محاسن
فرسنا .. ومرات يخلط الكلام ويقول انها فرس
ملعونة ، وانها كانت حرونا وعنيدة وما يقدر عليها
الشديد القوى ، وأحيانا يغيب فى الكلام ثم يطلع مرة
واحدة بالكلام بعد أن يميل على أبى :

« لا يهمك .. ابنها يعوضها .. قلبى كان لا يرتاح
لها .. »

***

.. دارنا تقع فى سرة النجع ، والمنافذ كلها أصبحت
تفرغ فى دارنا .. لم تشهد أى دار فى النجع عز هذه
الدار .. كان أبى يهل من المرماح على فرسه هلة مملوكية ،
وتروح العيون الى الموكب .. والطبل والزمر
والفرسان .. وأبى وسط الدائرة بحزامه العريض الموثق
ببركات النبى وسيدنا الخضر والصلاح ، تكثر الصلاة
على النبى وهو يعدل الشال على قرنه فتتراقص الشراشيب
المدلاة ويظل الطبل يدق ، ويأتى الفرسان من النجوع
لتقديم واجب المباركة ..

.. تغير الحال ، جاء العمدة وفى ذيله الخفراء ..
ولما رفض أبى ابلاغ النقطة قاموا .. أخذها عمى سيرة وعاد فيها وزاد ، ترك أبى القعدة وجلس وحده فى حوش الدار ، سرح وعينه على الباب الذى خرجت منه الفرس ليلا ، وأمى تلحظه مخضوضة وعيناها فزعتان ووجهها ـ من الحر ـ قشرة لحم مقددة .. تفلتنى أمى من حضنها وتأتى لأبى بالحمل المصنوع من وبر الجمال ليجلس عليه ، ينظر اليها ويظل ساهما ولا يتكلم فتعود أمى وهى تلطم وجهها .. أندفع اليها فتلفنى بيديها وتلفحنى أنفاسها اللاهثة .. وتنهنه .. ولما أهم بالصراخ أنا الآخر تكتم وتسكت وتنزلنى على الأرض فى رقة لم أعهدها وهى تسمى باسم الله وتهمس : « أماتتك الباقية يارب .. احفظها » ..

***

.. فى الصباح ، خلا المرماح من أبى ، لم تلف أمى حوله بالمبخرة .. ولم أصح على صوته المشروخ يدندن وهو يجذب الفرس ويتحنجل ويلف حولها ويتهيأ للركوب .. لازم أبى دارنا .. وانزعجنا وأمى ترفع

الزاد من أمامه كما هو ، وهو صامت ، والخوف يقتلنى وأنا أرى كل واحـد مشـغولا بشغلته ، وصـوت « الجباخان » يعبق الجو : « طاخ .. طاخ .. طاخ » .. والحشد اليومى ما زحف الى دارنا ليخرج أبى ، وأبى قاعد ما جللته الرايـات ، والطبول التى كانت تسـبق الموكب جاءت من مكان آخر .. أمى قالت ان الطبل يدق من أمام بيت شيخ الخفراء ، القبيح ابن القحبة وجد يومه وجاءت الساعة التى نراه يطلع فيها الى المرماح .. ومالت ـ أمى ـ على أبى ، سمعتها تقول له كلاما كثيرا .. وعلا صـوتها بالكلام ـ « أنت أنت يا زين الرجال .. الشغلة شغلتك يا أمير » .

ولمـا هل علينـا عمى وهم بالكلام عن ابـلاغ النقطة هب فيه أبى وأدار ظهره ، انبسطت وانا أسمع أبى يرفع صوته ... ومع غبشة الليل قـام أبى من مكانه وكان جسده قد هزل حتى يكاد سرواله يكون فارغا ، تابعت أبى وأنا حزين على حالنا ، وجدته يدفع دولاب الحائط ويفتح السرداب السرى ويشـد حزاما حول وسطه ويشمر أكمامه ويسحب البلطة من جرابها

فتضوى .. ألقم المهر الحرون لجامه .. والتفت ناحيتى وأخذنى بين يديه ، ضغطنى ثم لف حول المهر الصغير وقفز فى خفة على ظهره لأول مرة منذ ضياع فرسنا ، وغاب فى عتمة الليل ..

***

قـــادمون

•• فى الليل ، دبت الحركة فى نجعنا ••

نطت الكلاب فوق حيطان البيوت ، وشدت نفسها للأمام ، وأطلقت نباحا متصلا غريبا ••

سمى ولد وهو يقلب كتابه ، وغمز لصاحبه فى خوف : « الكلاب قدامها جن » ؟ ! ••

•• وقف شعر الصغير وارتجف ، قال فى همس اننا فى رمضان والعفاريت مقيدة ••

•• زغدت امرأة زوجها فى ظهره ليتنبه للأمر •• وانفلتت صبية من صدر رجلها منقبضة القلب ، وتفنجلت عيون النجع :

امتدت يد الى جراب بندقيــة ، وخرجت بلطــة تضوى من مكمنها ، ولمع نصل سكين حاد فى يد امرأة سافر زوجها للبلاد البعيدة ••

وترددت الكلمات فى همس : « الملاعين •• ضربوا داير النجع » ••

•• ومع الفجر انتشر الخبر : « الغجر •• » ••

قالها دركى وهو يلف حول زمام النجع ، العجيب ان البعض تنهدوا فى ارتياح ، ملأوا جيوبهم وداروا •• الذى مال على زوجته وسحب ما معها ، والذى مال على جاره وأخذ ، ومع ارتفاع الشمس علت أصوات الدجاج والديكة ، وهاجت المعيز تحـاول الافـلات ، ونظرت العجائز ــ فى حسرة ــ الى رجال نجعنا والمقـاود فى أيديهم • وأرجلهم تهتز فى عصبيـة على حمـيرهم وهم يتسابقون الى سوق المركز ، ورجعوا ــ رجال نجعنا ــ وأرطال اللحم فى أيديهم ، وجيوبهم منتفخة بمناديل بنات وحمالات صدور وكحل عين وقواوير عطر •

•• ولمـا مالت الشمس ؛ كان الدخـان قد عبق الدنيا فوق نجعنا ••

أكل الرجـال بنفس ، وضحكوا ــ على غـير عاداتهم ــ وبخوا جلاليبهم البيضاء ، ومروا عليها بأطباق الصاج •• نقعوا نبابيتهم فى الزيت وسحبوها فى أيديهم،

قصعوا الطواقى فى مؤخرات رؤوسهم ، ولمعت الشيلان على أكتافهم مثل القادمين من سفر •• جفلت النسوة فى نجعنا ، فنجلت كل واحدة عينيها على رجلها لتستر نفسها فى طوله بدلا من الحية التى تلعب ملعوبها مع الجدعان وتسلبهم المـال والعافية ••

***

دارت الحـركة فى نجعنـا : علت المراجيح ودار الغـاب •••

رفع « حفنى أبو رية » بائع الليمون ــ والمفضوح فى نواحينا ــ صوته ؛ يومه يوم حلول الغجر : يفندق دكانه على آخره ، ويكركر ، ويشرب ، ويسعل حتى يهمد ثم يشمر معهم وينفخ الكور ويطرق الحديد ويحشر نفسه فى قص الحمير وتقليم الجيـاد ، وتزيد الحركة عليه آخر الليل ، يلفون حول بيته وينعرون كالعجول •• واحد دق بابه وسأله ــ هو الذى يبيع الليمون ويعامل الغجر ــ عن أقة سـكر ، ولمـا لم يعجبه شتمه وسب جدود من خلفوه ، والثانى طلب معسل الكيف ، وضحك وغمز •••• وضحك حفنى ــ أيضا ــ وغمز ومال عليه

وقال : « آخر الليل » . وواصـــل « حفنى » ضحكه لمـا دخل عليه الدركى ، وسلم ، وقعد ... سك دكانه وانفلت يشتم أولاد الكلاب الذين نامت الكلاب ولم يهمدوا ... لف سيجارة وخرقها ، غمز للغجرية فقامت ومدت اليد وأشعلت نفس الدخان .. شد النفس وهو يكور الورقة الخضراء فى جيبه ، وضحك « حفنى » والدركى يسحب فارغة العين .. تابعه وهو يدخـــل المفتاح فى الباب ويسك عليها بيته ، وضع أذنه أسفل الطاقة العالية ، سمع زوجة الدركى تفزع وتسب الغجر وسنين الغجر وبلاد الغجر التى رمتهم علينا ، وولى وهى تجعر جهد الباب طالبة يمين الطلاق ...

***

فى ليلة واحدة « تبندر » نجعنا : البنات لبسن الأحمر والأخضر والأصفر ، ونام الشعر بالصـــابون تحت الطرح الزاهية ، وزادت الحركة ــ مع ذلك ــ على بائع الليمون .. اندلق اللبن مرات ، وانكسر خـــاطر البنات وشاف الكواء عمله ...

قال البعض انها هوجــة الطـاعون ، وأكد بعض

العارفين« أنها الحية » ، وقد وجب قتلها » •• ولما وصل الأمر الى الغجرية قالت — فى غير مبالاة : « مستعدة ، أنا اللحم وأنتم السكين » ••• وقالوا انها اشترطت لمن يقدم على ذلك أن تتحدث معه على الأشهاد ، حتى لو كان شيخ النجع ذاته •••

الغريب ، أن أحدا لم تواته الشجاعة ليقوم بالتنفيذ ••• شيخ النجع أوكل الأمر لغيره ، والدركى تراجع ، وصارت حلقات السمر تبحث عن الطاهر ابن الطاهرة الذى يقف على الأشهاد ويحلق فى عينى الحيه ••• ويجز الرأس •••

***

بهـــلول

ابداع ـ العدد الحادى عشر/نوفمبر ١٩٨٣

.. واحد قال لواحد ، والواحد قال لواحد ...
وانتشرت الحكاية بين شبان نجعنا .. أصبحنا فى كل قعدة وفى كل وقفة وفى كل لعبة نحكيها لأنفسنا وللناس؛ ونموت من الضحك .. ! .. قلناها وصدقناها ؛ لكنها عششت فى أدمغتنا عندما تعدت زمام نجعنا ، فقد جاءنا — مع غبشة احدى الليالى — وفد النجع الغربى ... ساعتها وقف الولد المعمم زينة شبان نجعهم ؛ وقد أمال الشال على قرنه ؛ ورفع نبوته وضربه بعزمه فى أرض الحلقة امامنا ، وحلف بايمانات المسلمين أنهم معنا يد واحدة ..

وقال ان الفكرة لا تخر الماء .

وقال انها ستشغل الرؤوس الكبيرة زمنا طويلا ونقعد أياما نضحك ونضرب الطبل ونلف بالرايات ونسد الطرق ونجوب النجوع المجاورة ونهتف للبهلول ...

وقال ولد فى حزم : « .. أحسن .. لا شيخ نجعنا ولا شيخ نجعكم » ..

ودخلت الحكاية فى الجد ...

ضرب صيتنا ، وحلت الوفود ..

أصبحنا فى قعدة كل وفد تتجهم ونصطنع الجد ، وبعد رحيلهم نموت على أنفسنا من الضحك ..

لكن الأمر تطور وكثرت قعداتنا ...

تركنا ــ دون قرار ــ الكرة « الخيوش » ولم نعد نتقاذفها بالعصى على ضــوء القمر ، ولم نشــد الحبل ... وأصبحت قعدتنا فى ساحة المرمــاح ... نقعد قعدة عرب ونفرد شيلاننا ونكوم عليها ما فى جيوبنا من طماطم وبيض وجزر وبصــل أخضر وأكواز ذرة وأرغفة ، ناكل وندفىء أنفسنا وتتدبر الخطــة حتى يظهر رجلنا فى عيون الناس .. ورجلنا ــ البهلول ــ ولاهنا ؛ كأن الأمر لا يعنيه : طيبته هى هى ، وضحــكته هى ضحكته ، و « ريالته » هى هى على صــدره فى خيط طويل لا ينقطع ... ومــع ذلك نحب البهــلول الذى لا يكذب علينا ولا على الناس ...

« الشيخ سعيد » ، الذى يمر بنجعنا كل هلة قمر ليفتح الكتاب ويفك العرسان ، عرف طريقنا ... قال اننا « هبل » ولا نفهم .. وقال ان المسألة يلزمها رسميات ومصاريف وتقديم وتأمين وكشوف وتكتيك ...

... تعبنا من المسألة ... قلنا له اننا نتكتك كل ليلة من البرد ...

وكل ليلة لا نلعب ... نقعد القعدة و « نبز » ما معنا ونستقبل الوفود ونودع الوفود ...

... مشينا فى خطتنا وطاوعنا الشيخ سعيد ... فوضناه الجرى وراء الاجراءات ومشى فيها ..

شبان النجوع المجاورة جدعان ، أصبحت وفودهم تحمل معها كل ليلة الخبز والجبن والشاى وأقماع السكر وصورا مرسومة للبهلول رجلنا ورجلهم ورجل النجوع المجاورة ...

... رصصنا زجاجات الحبر والصبغة الحمراء والكركم والورق العريض ... صفصف كتاب النجع

على سيدنا ، وانصرفنا الى الحيطان وقلوع المراكب التى تحل علينا •• نملت آيدينا من الكتابة ••• وأصبحت قلوع المراكب رسالتنا لكل الناس :

ـ البهلول لا يناور

ـ البهلول لا يسرقكم ••

ـ البهلول رجل الجميع ••

ـ مع البهلول ••• أنتم فى أيد أمينة •

***

••• مع مرور الأيام تعقدت المسألة ••• كلوبات تلف النجع وزغاريد وطبنجات وطبل ورايات ، وشيخ نجعنا فى الزفـة يوزع ضحـكاته وابتساماته وتمنياته ويلوح بيديه ويخطى عتبات البيوت المفتوحة ويسـلم على الجميع ويحضن الأطفال ويداعب العجائز •• تحملنا شتائم واهانات وتضييقا فى المصروف وأوامر النوم مع المغارب وأزرقت جلودنا من الكدمات والكرابيج ••

لكن الأمر سار كما هو ... الشيخ سـعيد فى الاجراءات والبهلول ــ رجلنا ــ كما هو .. نفس قعدته المعروفـة فى ظهر وابور الطحين .. رأسـه الصـغير المسحوب مثل البطيخة ــ الكينجى ــ المحلوق دائمـا بالموس فوق وجهه مستديم الضحك ، وفمه المفندق على آخره ، والخيط الهلامى اللزج المنحدر من فمه المشقوق الى صـدره ، وعصـاه السنط الغليظـة المسنودة فى جواره ...

كل ما جد أن الحكاية بدأت تستهوى غيرنا ..

... جاءت الحـكومة وانتشر رجالها بنياشينهم الذهبية والطيور والرايات الصغيرة فوق أكتافهم ، سدوا دروب نجعنا وضربوا من وقف فى طريقهم .

... فى الليلة الموعودة نمنا آخر الليل ، لكننا قمنا على صرخة مخ جارحة ..

انطلقنا من بيوتنا مع الفزع ، وتدافعنا بين أرجل الكبار ...

... وكانت خيبتنا كبيرة عندما وقفنا فى الحلقــة الكبيرة على ضوء الكلوبات ، وجدنا البهلول « رجلنا » على ظهره وعيونه واسعة مخيفة .

... وخيط دموى أسود يتدلى من فمه المشقوق على آخره ... !!

***

خيــــول

.. يندفـع « رشـدان » فوق مهره الأرعن الى صـدر الصفوف ، يرفع حربته الطويلة ـ كمـا ليل مجروح ـ بين يده ، بكفه يقلبها .. ويشوح ، وفى قوة مفاجئة يغرزها للأمام ويميل معها ، ثم يسحبها ـ فى يده ـ الى الوراء ويعتدل فى سرجه مستردا توازنه ..

يضحك رجل مفاخرا :

ـ ما شاء الله .. أبو زيد يا ولد .. !!

.. ويبسمل العم ويصرخ ، يستحثه الاتزان .. ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم والعين الفارغة .. ويجيئه الاطمئنان :

ـ رجالنا كما المطر يا عم ..

... وترتـد نظـرات العم ـ متعالية ـ فـوق الرؤوس .. انكبست الرجبـاية ، حمحمت الخيـول واشرأبت أعنـاق الخلق . وارتفع الصهيـل والنهيق و ..

ــ « يا من يلم اليوم » •• !!

•• رائحة الأجســاد المتحفزة فوق السروج تعبق المكان •• الشمس فندقت فمها على آخره ؛ أرسلت سهامها وتربعت تلفح وتعاين وترى •• وتضحك •• تنز الأجساد ويتسرب العرق خطوطا باردة يلتصق بالعفار •• والتراب •• و « رشدان » فى آخر الرحباية يعدل لبدته ويميل شاله الشاهى على قرنه •• يرمى اللجــام فوق السرج ، يتمســح المهر الأرعن به ويحمحم •• تندب العيون وتتركز متفنجلة •• يؤكد « رشدان » وهو يمد يده أن : « الكرة انشطرت •• لا فائدة » •• يفحص أفندى الأوراق •• يهب العمدة حالفا بأيمانات المسلمين أن « بلدنا يد واحدة •• ربنا خلقها هكذا » ••

يطيب الأفندى خاطر العمدة ، يشير اليه غامزا ••• و ••• يلفحه الصوت القاطع .

ــ « ضرورى الانتخابات يا ••• عمــدة ••• لابد ••• »

تفنجلت العيون الغائــرة وراحت وجاءت فــوق

الأزرار الصفراء ••• من بيت فى طرف الرحباية تشرف الأم على ولدها « رشدان » بالعين والقلب ••• تفسح جانبا للصبايا •• والصبايا يغمزن •• ترفرف القلوب •• والحبيب غـال ••• تزغـرد واحـدة ، وتطول ••• تسرع الأم الى قراعـة الضنى الصغير ••• تدس فى مخلاته قرص « زلوط » وحربة • يعلقها الولد فى كتفه ويشد السرج الصغير ، ويهم •

•••• فى مهابة الرجال يهل الآخر فوق سرجه •• ينشرح الصـدر ويتعالى الضجيج •• من الطرف الآخر للرحباية ينظر واحد بعينيه الحولاوين الى الأشهاد •• يركز نظره ويدقق •• يغمز لجـاره •• ثم •• ينسلان خلسة الى عين الحاكورة •• يطبق واحد منهما يده على ما يحمله ويستره بجلبابه الواسع ، يشد لسان الجدى الصغير فتجحظ عينـاه ويتملمص ويرمى رأسـه بينما الآخر ينهمك فى كبس حفنات تراب تحت اللسان المشدود على آخره ويشـدد عليـه ليخرس صـوته الفاضـح وينطلق ••• ويعود الثانى الى مكانه بين الأشـهاد • والآخر يجرى ــ محنيا ــ بين عيدان الذرة •

فى الرحباية يتعالى الغبار وتشدد الشمس سهامها .
تخبط امرأة وسواسة صدرها . ويضحك مفلوت لسان :

ـــ نلعب البرجاس يا عم ..

... ويضحك متواريا عن العم . يتداخل وسط الخلائق السابحة فى عرقهـا ... يغمغم مرائى بكسر الشر ... وينفى وسواسه أن :

ـــ « لابد مما ليس منه الآن بد ... » ...

ويؤكد متحمس أن « بلدنا لا تساوى نجعا .. دوائر الناحية شربت عينها » .. فوق سرجه يتحسر : يقولون اننا مقفولون والمفتاح فى جيب يا عم .. ويرفع صوته فتجذبه من الخلف يد سمينة .. مع الهزة يلمع نصل فجأة فتروح العيون مع ضية .. يتحفز « رشدان » وهو يخبط على جنبه : « الطبنجات آقـدم ... يا ... ولد » . ويوزع نظراته فوق الغبـار المتطـاير خلف الجموع المترقبة .. تشخص العيون جاحظة حتى نهاية الرحباية ترتد آملة والطابور يتحرك فى بطء وثقة ...

« رشدان » . « النحاس » .. « عيد كامل » يهمس هامس : « والعمدة » .. ؟ ..

ــ « النظام نظام ... فى دوره » ...

يهب العمدة واقفـا تلسعه المســألة ويخرج آهة موجعة ... يصرخ ــ يائسا ــ فى الطابور الدائم على نفسه الذى يتقدم بسرعة نملة ... « سهم الله نزل .. لا فائدة » ويلعن العمدة « رشدان » وصنفه حالفا أن بلدنا نفخ فيها .. والعياذ بالله ــ قرد ...

***

فى سرعة نملة تتردد الأســماء وتصطف الصفوف وتتضخم .... تتمدد معها رأس الرجل الواقف ينفخ نارا .. يتطوح الرأس فوق جسده السمين فيشق الحشد لاعنـا .. ينعقد الغبــار فوق رؤوس الأشــهاد ... « رشدان » يرتكز الى حربته فى عين الرحابة وعيون العم متطلعة والصــغير فوق سرجه فى جواره يقضم ــ خلسة ــ بين آن وآخر شيئا . والخيل تركض قادمــة ورائحة على صدر الساحة لاتزال ..

اغتيـــال

ابداع - يوليو ١٩٤٨

حفظ « القنــاوى » ما يكرره مؤذن زاويتنا :
أن الله ـ عز وجل ـ لمــا بعث نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، رسولا الى الناس كافة ، كان من أمره ، صلى الله عليه وســلم ، أنه قــال فى النــاس قول الله عز وجــل :

« اضربوا فى الأرض وكلوا .... »

وكان من أمر الناس أنهم يجتمعون الى الصحابة كلما حل ضنك فى المعيشة وقلة فى القوت ..

ويركن مؤذن زاويتنا سيفه الخشبى ، ويســلم ، وينسل « القناوى » مارا برأس الجسر ويفكر فى كومة اللحم وهو يشيع المراكب المســافرة ، ويؤكد لنفســه أنها ـ حتما ـ راسية راسية ..

***

ولمــا رست المراكب المرصــوصة بالفخــار لأم الدنيا ، نزل « القناوى » ولم كبشة اللحم ، بص لدنيا

الله الواســعة ، وصلب طوله وتنهد ، تعجب ، وقــال لنفسه ــ هو الذى لا يملك المــال :

ــ « أى مكان والسلام ، فيه ينستر اللحم ، ومنه يبدأ المشوار » ..

ولف « القناوى » ودار ، حل برجل ، وقال له : « حق الله » لمــا ناداه بعد أن رد عليه الســلام ، آنسه وقعد ، ولمــا شاف الأرض تبخ نارها ركع ركعتين فى صحن جامع قديم ، أطاع الرجل لمــا أشار عليه ، وشغل مخه ، وزرب ــ القنــاوى ــ المكان بالبوص ، سقف السقف وشد عليه ــ زيادة فى التمــكين ــ بحبــال الليف .. ضرب الأرض ، وركب الناطور ، لف الدولاب فلف ودار ، صــور الفرن الذى يأكل العفش ويحرق الطين ، وسمى القناوى باسم الله .. فرح الجار لمــا لف القــادوس ، ولعبت الأصــابع مع الدولاب .. رصت الزوجة فى الشمس ، وناولته ، وألقم الفرن الواســع البوز .. لف الدخان ، وحل الناس لمــا شافوا الشوف، وبصوا على البدن النحيل وقالوا :

ـ عفارم يا رجـل •••

ضحك القناوى ، وزاد ، وزاد الأغراب ، وضربوا حلقته •• وراحت العربات وجاءت العربات ، وضحكوا ـ الأغراب ـ لمـا لمحوا النضارة تطل من وجه زوجته العفية ، رموا الكلام وزادوا ، ومســك « القناوى » نفسه وهو يلمح حواجبهم المشدودة تأكل عاره ••

« معقول يحنى القرن ••• ! » •

ويفور دم « القناوى » ••

ومع اشارتهم المكشوفة ، همهم وغمغم ، ونطق فسكت دولابه ، ولمـا زاد تقيح جلده ، وسين وجيم ، وفاض به ، انفجر « القناوى » وقال ما قـال فاختفت زوجته وغابت (عادت بعد فترة كسيرة الخـاطر وقد قب كرشها ، ومن يومها ما نظرت فى عينيه ، وفجـأة سمت نفسها وتركت له كومة اللحم) ••

دار « القناوى » ولف ، تعجب لحـال الدنيا : المبنى القديم الذى له صهللت فوقه الرايات ، وغلب حماره •• دله الجـار القديم باشارة خفيـة فما كذب

الخبر .. عملها وانحنى بباب المبنى القديم المصهللة فوقه الرايات ، وقف مشدود الوسط : العكاز فى يمينه وفى شماله الابريق ... و :

ـ يا أهل الله .... !

وخرج أهل الله ، سأله شيخ : من أى البلاد آتى ، وبأى الزوايا نزل فى طريقه ؟ ومن شيخه ؟ ولما لاحظ الشيخ قلة حيلته أراه موضع الطهارة ..

جدد « القناوى » الوضـوء وصافح الشيخ ومن حضر ثم قعد وقرأ معهم وانشرح صدره ، واستبشر .

ولما نظر للرايات وتجرأ بسؤاله ، اندهشوا .. نظروا للشـيخ ، وغمغم الشيخ وأشـار .. هموا به ، وأخذوا خبزه وقلبوا مرقه ، وزاموا فى وجهه :

ـ لابارك الله لك ... !

طوحوا به من فوق العتبة العالية ليطهروا المكان القديم من لسانه ومن قلبه ومن يديه . وتطوح الرجل ،

ودار ، أخذه الدوار المجنون ، ولف ، واحتمى بمئذنة
تشق عنان السماء .. لف داخلها ودار ، وعلى أعلى حجر
فيها ؛ ما ان باعد ما بين شفتيه وهم برمى سؤاله المجنون
واهتزت عضــلات الزور وتحرك الهواء داخــل الفم
المفتــوح ، ويهتز الهــواء المحيط .. ازعجت آلاف
العيون الشاخصة اليه والتى تلفه ... وفجأة من تحته
ومن خلفــه ومن فوقه ـ وقبل أن يرمى بســؤاله ـ
ارتعشت أصابع كثيرة وبندقت .. !!

الأمـــير

الكاتب ـ اغسطس ١٩٧٩

وتفوح رائحـة الحرب •• ويمتطى الأمير منكم مهره •• وينزرع فوق الساحة ، يتحسس كمره العريض الذى يحبك وسطه ، يرفع سيفه فيخطف القلوب ويدفئها ، وتتشبث العيون على وهجه وتتفحص دبوسـه الصلد وحربته الطويلة الحـادة ، وترتفع الأيدى الضخمة تسأل الحق وطلب الأمـان ، والصبايا يغمزن خلف الطاقات الطينية •• ويبتسم سن الأمير وتضحك العين وتلتمع فيها اشـارات متوهجة آملة ، ويتبختر بحزامـه فوق الساحـة ويهز باعه فى الهواء مطمئنـا •• ويدور •• وينتصب شامخـا •• وتهتز رفارف شاله الأشـهب •• وعمامته الكبيرة المزينـة بالشراريب الضخمة المتدلية ، يطوحها الى الخلف ويردها ــ الزين ــ على جبهته ثانيا •• ويدور ويشكم المهر الأرعن •• ويشب الفرس فى بطء وتصلب •• ويفتح ــ الأرعن ــ منخاريه صوب الريح •• ويغير اتجاهه •• ويمد عنقه •• ويجعل رجليه الأماميتين على استقامة واحدة ، ويطوح ذيله للخلف •• ويرخى الأمير السرع •• ويلكزه فى قوة •• ويـدق الأرعن

بحافره ويصهل صهيلا مرعبا •• ويندفع سهما مارقا ••
وتعفلق الدنيا والأمـير يشـق بسيفه كبد الصـحراء
والعظـام •• وتعوى الريح والخيام وتحمـل الصراخ
والغبار والدم ورائحة الدمار •• ويغيب الأمير فى صدر
الأفق •• ومن خلفه تتركز العيون وتتمركز •• وتنغرز
خلف النقطة البعيدة وتوغل النقطة فى البعد •• وتتلاشى،
وتثب من صخرة الى صخرة ثالثة •• وعاشرة •• وتتعلق
العيون وتتفنجل وترتفع الأيدى فوق الحواجب مذعورة
وتلسعنا الشمس وترمى بنفسـها علينـا : « أمهلينـا
يا ملكة الدنيا •• » •

وتقتطع الشمس من أجسادنا الضامرة حبات العرق
الحادقة وتسحبها سـيورا فوق أبداننـا ، وينكبس
الخلق •• ويدققون ويشقون البراح بنظراتهم الآملة ،
ويرجع الهواء بصرخـة مشروخـة ، وتتحجر الآذان
وتستطيل فى الفراغات مشرعة ، ويعم الصمت •• ويغرق
الجميع فى كآبة قاتمة •• ويدخل الكل فى وسواسـه
وتتأكد الفجيعة عندما تظهر بقعة سـوداء من صـدر
الكون ، وتقرقع الحجارة وتتطاير مع الحوافر الهامدة ••

ويعـلن وجيعتنـا مخ وتصرخ البطـون •• وتنشرخ الصدور •• وينزل عليها الحاصل صاعقة مدمرة وأسياخ نار تشـوى القلوب والخناجر ، يرتفع الدخـان الى الحلوق •• ونضرب الصدور ونقطع الأفخاذ والأوراك •• ونلطم الخدود فى شـدة وتلقائيـة •• الفعلة تصعقنا يا أمير •• ويذوب الدخان المنعقد تحت جريد البيوت •• وتنقلب الكوانين على أحناكها •• ويشر المرق •• ويخمد الدخان •• ونعقد منكسرين من الهول •• وتصبح الفعلة طعنة فى القلوب لا يداويها سوى فارس وعر ، ونبحث فى وجوهنا ونقلب وندفن خلقتنا فى النيلة الزرقـاء ، وعندما يهبط الليـل تعوى الريح ناشرة معها صرختنـا الموجوعـة فى فراشـنا ، وعندما يعلو شخيرنا تصطبغ البيوت بلون الحداد •

الرجال لا يلبسون ثياب الحداد :

وتتثاءب الشمس •• وأنتم تقتحمون الساحـة مثـل عاصفة هوجـاء •• ويهدر رجـع الطبول •• وتتمطى ــ الشمس ــ فى مخدعها وتطل بوجهها اللين الطرى وتتلوى وتنذر وتدور السيوف تحتها وتنعكس

صفحات فضية تخطف البصر ، وتعقد ـ الملكة ـ حاجبيها
وتهب مفزوعة وتلقى بنفسها علينا •• وتبخ نارها ••
ويعتلى الأمراء صهوات جيادهم وتلسعنا الشمس
وما نزهق ، وترتفع الحراب الطويلة •• وتدورون حول
المضارب •• وتشتد الجلبة وتطلقون لخيولكم الأعنة
فتدور الأرض وتنشق عنك يا أميرى ، قامتك المديدة
ولونك المحروق وأنفك الأفطس •• رأس حربة القبيلة
وحاميها •• والبطون ـ ما شاء الله ـ خلفك تجلجل
سيوفها وتلمع •• والحجازيون •• وبكر ••
والحساسنة ، ويهل العم يا أميرى •• وينزاح هم
ويتمكن هم ، يهبط ـ العم ـ الساحة فتنطفىء
الجلبة •• يعدل الشال على قرنه •• ويتحسس عمامته
العالية ويقدح شررا •• وتسقط العيون على جبته
الدكناء وصديريه اللامع وحزامه العريض الموثق ببركات
النبى وسيدنا الخضر والصلاح •• ويحاول اخفاء غضبه
رغم عجن السر وزرعه فى رؤوسنا وصدورنا •• ويظهر
الموت فى وجهه وقلبه ولسانه ويديه ، يدب نظراته الوالعة
فيحل من الموت صمته •• ويحرك ذراعه فتستدير

الرؤوس مع الحركة .. ويهز يده ليسوق أحدكم الى شاهده .. ويحلق الذعر فى عينى الواحدة منا فتمسك قلبها . ويأخذنا الاضطراب والعم يمر .. ويغرز عينيه فى الوجوه المنقبضـة .. والهمهمات ، وننثر رجـاءنا الصامت حولكم .. وتدور نظراتنا الضارعة تائهة .. كلنا تدفن سر اعتذار فارسـها وأميرهـا .. ويصرخ العم صرخته فيتلون الأفق .. ويفزع جواده ــ الأبجر ــ ويهم بأن يشق الخلاء ، وتهم القلوب بالارتياح : « العم وحـده من يجيبها » .. وتفزع وحـدك يا أمير وتقفز محاديا .. تنهد عيدان القبيلة وأنت تخطف شالها .. وتشرئب الأعناق محاصرة .. وتنفتح العيون على آخرها لامعة مضاءة .. وتلفك دهشة تشع الرعب والدم عندما تنفذ بشـائر الفعلة الى القـلوب : أنت صغير يا زين الرجال » ..

ويقفز القلب من مكانه وأنت تقدم نفسك قربانا وحاديا ، وموت آخر ، وتتشبث الأيدى بالريح ، يتوجع الصدر ويصرخ جافـلا : « يا أمير .. ! .. » وتردد الهضـاب صيحات السـلامة والعم يمسح على الرأس

ويبارك زندك وهو يهمس فى عظمـة شامخة ، ويثقلك الكلام وتصول يا أميرى وتجول •• يعلو الطبل ، ويفتح « الأبجر » منخاريه ويزلزل صـوتك وتنحدر صوب الغيب سيلا هائجا •• فلا نامت يا أميرى أعين الجبناء •• **وتتركنى يا أميرى بلا رجل •• ! •• :**

•• يامر بلوتى •• الصحراء كفن أبدى ، وتشق سترها يا أميرى سهما مارقا فينغرز فى قلبى ألم يهد ، وتسافر بعنادك وتنتهى بنقطـة ما تغشاها الصـدور فينتفض الجسد ، أسبح فى بحور عرقه وأغرق فى تفكير أبدى •• فارس النهار أنت •• وأمير الكحل والطيب والجسد ــ أنت ــ وسلطان الليل والزمن •• وأنهـار فى وسـط الساحـة •• ويقرفصـون يا أمـيرى فى حلقات •• ويشـعلون الضوء فى قبة الليل ، يسـنون الحراب وعيونهم تسعى حولنا •• وتتفتح الحنوك عن آخرها من الدهشة والألم •• وينزل الحاصـل صاعقة مدمرة •• نبحث عن جواب شاف ، تفجر الجسم طولا وعرضا وعاد الفارس فى بركة قانية •• ويلتصق الدم ــ ياعين الأم ــ بالفرش والصـدر والقلب •• وينتفض

الجســد ، يجىء كثيرون وتستقر الحسرة فى القلب ، يجف العود وتذبل الثمار ويتيبس الجســد •• ينزف الحزن يا أميرى وتكبر الحسرة وتنبت الوجوم والخواء ويتراقص المشيب بعصــاه ويدب •• ويجرح دبوس صدر الأفق ذات ليلة فينقلب الجو وتشد العفرة كل العيون ••

اغنية شعبية للريح :

تكور فى الصدر نهد الرجولة ؛ انطلقت ؛ تعلمت التحاور ؛ تحـاورت ؛ هززت بجذع النخلة ما سقط الرطب جنيا ، جاء المخاض تمخضت ونادى من التحت : « لا تحزن يا أبت » •• هززت الطفل من المهد وحاورنى: « يا أبت رأيتك فى المنـام تهز كتف الريح تصيد تنين الفيافى تغوص فى صــدر المغيب يلوح درعك يا أبى ويجىء للأعمــام بالشمس البكور وتزرع الأشــياء فى الصهبــاء تخضر ولا ماء ولا ســيل ولا نبع حتى انهم يتقولون بأن الجن مسك يا أبى •• تخرج علينا تهمس النسوة أن النبوءات قد كللتنا •• ونرضع الأطفال ان : « الطفل عم » وتعتدل الكوانين وتنعقد غبشــات من

الدخان تحت جريد سقوفنا ونهيم فى حب وتأتينا الرياح بأطفال ونغرزهم بالصحراء فرسانا يدقون السـهم فى بطن الأفق •

وللرؤيا تأويل شائك :

يحتار مفسر الأحلام ويقفل كتبه ويبرطم ، يلتقط حربة غير مسنونة ويدق عليها •• ويجرى ــ بحربته غير المســنونة ــ محاولا اللحاق بالصفوف الهائجــة ••• والغضب •• والرعب والدهشــة تهدر من فمه المفندق على آخره نقطـة الى البحر ، وسـيوف القبيلة التى تظله مشرعة تشع الدفء والاحتجاج ، ومن بعيد يجىء صوت يشهد : « على قميص الصــديق دم كاذب ••• ما قتلوا أميرنا يا عم •• » ••

مسافرون

الأهرام : ١٩٨٥/١/٢٣ م

سافر البهجوري الى بلاد النبي ؛ وارتفعت داره ..

.. وجماعة الدرديري دهنوا واجهة بيتهم ؛ رسموا عليها الجمال والأحصنة والنيل والبواخر والنخيل والشجر والطائرات والحرم ، ودقوا الدفوف وفرحوا.. والبرطوشي فات المدرسة ؛ وهج ؛ سحب أمه فى كعبه من حوش الوسية .. والحمد لله انستر صدره .. وشهر وشهر يشرف ؛ عليه المزهر والمطهر والكشمير والشاهي .. والبسيوني مسك العقد بالعافية ، زغردت أمه لما وصل مكتوبه على ورق مزوق ومعطر ، والكعبة المشرفة — ما شاء الله — منقوشة عليه وبجوارها قبر المصطفى ، هلت الفرحة فى عينيها وقالت — هى المختصرة فى حالها — لعباس الظايط :

— يوميتك عندى اليوم يا عباس .. وبعد اليوم يوم ويوم . من الفجر على المركز ، نقدم أوراق الحج .. ونقطع كسوة الأولاد .. وبالمرة نشترى القماش الأبيض

والطرحة البيضاء وكمر الجلد وباقى مستلزمات زيارة الحبيب ..

.. ووافق عباس الظايط ، وفرح ، قال فى نفسه : « فرصة يا عباس ، فسحة وراحة من هد الحيل .. » وقالت أم البسيونى .. وأكدت :

— « صحيح .. من لى غيرك يا عباس .. ؟ » .. وحك رأسه عباس .. وحسب الحسبة فى سره :

« المواصلات على الموعودة ، وعليها طقة الظهر ، والجميل يبقى فى بطنها ؛ هى التى لا تنسى الجميل ؛ حتى ترجع من البلاد الطاهرة » .. وكبرت المسألة فى رأسه .. وطبطب على زوجته .. وتمحك .. وضحكت زوجتــه — هى العاقلة — لمـا شافت أســنان عباس وفعله .. وقالت فى غيظ :

— مالك اليوم يا بن آدم ... ؟

وضحك ...

— والله ما هو حالك يا رجل ..

•• وزاد ضحكه •• وبحلقت المرأة •• وقال فى سره : « الفرصة فرصتك يا عباس ، تعملها وتسافر •• » •• ومن قصيرها قال لها :

ــ فهيمه •• أنا نويت السفر ••

•• وزعقت ــ هى العاقلة ــ وناحت :

ــ تهج يا عباس •• ؟ •• وبنتك ؟ •• وابنك ؟

وجاء الناس ، والحاصل حصل •• الناس قالوا! اسكوت أحسن ، عباس ركب رأسه •• وطلعت فعلا فى مخ عباس الظايط ، • وقسم ــ وهو غير الخبير بمصر ــ قسمته ، وحسبها ، وضربها •• وبلمت أم البسيونى فى وجه الفجر ، تسمرت مكانها بوتد وقالت لزوجة الظايط :

ــ والجنيه •• ؟ •• والمركز ؟ وورق الحج يا فهيمه ؟

وكشت فهيمه •• وقال الناس :

ـ الحج ناداه يا وليه ، عملهـا الموعود •• ولم ورقك •• وسافر ••

***

•• طلعت المسـألة فى رأسـه ـ هو غير الخبير بمصر ـ وطلعت معه وعدل وجهه جهـة العيون •• وأطلت عليه ألف عين ترحب وتعانق •• وسلم عبـاس الظايط ونفض تراب السفر وقعد فوق دكة الأحباب •• نش الذباب لما طن ، وسحب نفس الدخان وهو يلف ، شرب الشاى وعدل كيفه •• وتكرع •• حمد الله ومسح بكف يده فوق وجهـه ، وحـكى للأحبـاب ، وبلغ السلام •• فى آخر الليل تربع حول النار •• وبعدها ؛ لف نفسه ببطانية الجيش •• ومن صباح الصبح توكل على الله وفك دكة سرواله وخلع فانلته المرقعة من فوق كتفه •• ونط بصحته وسمى وهو يقف وسط الحوض الكبير ••

***

•• فى جوابه قال لها :

(البنت وصيتك يا فهيمة ، والولد شغلته المدرسة، والأستاذ أحمد يعطيه الدرس الخصوصى •• ضرورى•• وكله الا المدرسة والدروس •• ابن البرطوشى قاعد فى المدابغ على مكتب ؛ القلم فى يد ؛ ورجل فوق رجل ، لا تعب ولا يحزنون ، ولا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا ويمر عليه ، ويرش ما فيه النصيب •• أتعجب •• وأقول فى نفسى : « حظوظ » •• يبص المعلم لى ويجرحنى : « تفك الخط يا بهيم ؟ •• » ويشق صدرى سكين •• وأرد : « البناية من الأساس يا عم » •• وألم البرش على الكتف •• ونعد : جلد جمل ، جلد خروف ، جلد جاموس ، ولو حتى جلد كلب •• ويوم ويوم •• وواحد وخمسة وعشرة •• والجلد بقرش •• وشيل يا حمار •• واحسب يا بن البرطوشى •• ونقبض ، وتروح الصحة وينهد الحيل •• وكأنك يا شخص منا ما كنت ••) ••

•• ولما ناولها الشيخ متولى ورقة حمراء تجرح ، طبقت يدها فهيمة •••• وتمتمت حزينة وهى تضع الجواب فى جيبها :

« ولو مال الدنيا يا شيخ متولى •• نفسك يا عباس بالدنيا » ••

***

•• كنست فهيمة أمام الدار ورشت ، قرفصت فى يمين الشيخ متولى •• وقال الشيخ : « بسم الله الرحمن الرحيم » وانشرحت •• وزاد الشيخ •• وكشرت فهيمة : الكلام غريب ، وقالت : « من الأول يا شيخ » •• وقرأ الشيخ : « انهد الحيل يا فهيمة » •• وزعقت فهيمة ، خبطت على صدرها وضربت بالمخ واستوقفت سيدنا •• « أنت شاهد يا سيدنا ، بالذمة ، أنا قلت له سافر يا شيخ ؟ أنا أجعله ينطح السد برقبته ؟ » •• وقال الشيخ :

ـ الصبر يا بنيتى •• القرب والبعد واحد •• والمكتوب هو المكتوب ••

•• نهنهت فهيمة : (قلت له بركة من الله يا عباس ، العيش موجود والملح فيه الكفاية •• ندق قدح القمح

ونرمى عليه حفنة الفول المحمص المطحون ونخلطه بالملح ونرش الكمون ونكبس الخلطة فى قلة طارت رقبتها •• ونبلعهـا ونحمـد الله ما دام السـتر يفرشـه صاحب السـتر) •• والتصقت بالشـيخ فجـأة : « خـير يا سيدنا » •• وانتظرت ، ولم يتكلم سيدنا •• بص فى الجواب وقال : (دخلتنى الحمى يا فهيمة ، قـالوا لى عليك بالراحة •• والحوض يا زوجتى — أجارك لله — سم السم •• ملح فى ملح •• قلت لنفسى أقعد ؟ •• ! •• والعد ؟ •• والقبض ؟ • والأولاد ؟ • وفهيمة ؟ وقرصت على نفسى •• وزادت الحمى •• وأصبح جسـدى نار النار •• وما قدرت) وسكت الشيخ ورفع عينـه عن الجواب ، وسكت •• وهزت فهيمة الساكت : « عباس بخير يا سـيدنا ؟ » •• ولم يتـكلم الشيخ •• ونزلت دموعها •• ولتت •• وعجنت : « عباس يا سيدنا » •• وبص سـيدنا فى التراب ، ناولها الجـواب ، وطبطب عليها •• لم يناولها ورقـة حمراء تجرح ، ولا ورقـة خضراء •• وبصت فى ذهول فى وجه الشيخ •• قـال لها : « عبـاس على سفر يا عبيطة » ••• واحتـارت

فهيمة •• وعتبت على عباس •• وهل رجب وانتظرت •• شـعبان •• وفات شـعبان ولا خبر ، والعيـد على الأبواب •• ووصـل الحجاج •• وجاء البسيونى فى نعشـه •• وسـقط قلب فهيمـة •• عملهـا عبـاس الظايط ؟ •• ومن يومها وهى تجرى كلما سمعت عن السفر وسكته •• وتصرخ مستحثة أن يقول المسـافر لعبـاس الظايط أن يرجع للحمـه المرهون أمانـة فى رقبتها ••

***

دخـــان

الشرق الاوسط ـ فبراير ١٩٨٢

ولأول مــرة يحنى القــرن وترتخى ملامحـــه المشدودة ...

وانزلق بجانى ... ومد يده وهو يمسح بالأخرى كعب الغاب ؛ ويسعل :

يا مساء الورد ...

... جذبت النفس على آخر ما عندى ، وقامتى ترتفع مع الشـــد والكركرة ، وهو غـــارق فى ســـعاله ورجرجته الى الأمام والى الوراء ... يلم النار ــ التى تتوهج مع الشد وتتحول الى كتلة لهب ــ بماشته ..

وفى انكسار همس :

فضحتنا يا ناس ؛ كان لابد نرجعها ..

... ودارت العيون ؛ والصمت ؛ وعبق الدخان المكان ..

ألح صاحب الدور بتغيير الحجر ، جذبه داخـــل الحلقة وغير مجرى الكلام مستنكرا :

ـ عجيبـة والله ؛ مفلـس تتن ودرويش ..
ويشرب .. !!

ومال اليه وضمه الى صـدره ـ عنوة ـ وهو يضحك عاليا :

ـ استغفر الله يا سيدنا الشيخ ... !

... ضرط الرجل وزاد سعاله ورجرجته الى الأمام والى الوراء ، وانقطف لونه وهو يحك علبـة الجوزة بماشنه ليحدث صوتا .

وضحكنا على الحركة ...

تنحنح الدركى ، وقعـد .. ركن بندقيتـه ـ الميزر ـ فوق المصطبة ، أخـذ تحيته من غير دور .. أخرج دخانا كثيفا ، ومال اليه :

ـ أمك مسكينة ؛ لا أخت ولا بنت ... وأفعالك بصراحة ـ لا تنفع معها ...

.. ولمـا نظر الينا مستنجدا ؛ أسكته الدركى :

ـ مفعوصة تتحكم فيها .. !!

ودارت العيون تكنس المكان . لمعت الدموع فى عينيه ؛ وانتفض ...

اختلطت الرؤى فى داخـلى .. بسملت أمى عند ذكرها وقالت : « العقل زينة ، كانت ولا كل النساء » .. وحكت لنا أن ما حصل حصل من اليوم المشئوم الذى وجدوها فيه فى طرح السكة الجديدة فى حضن رجل ؛ وكانت فضيحة ...

ومن يومها وهذا حالها ...

وخفضت أمى صـوتها ، سمعتهـا تهمس لأبى : « العيـال تلعب معهـا .. سبحانه ؛ لا يذل الرجـال الا هو .. مسكين ولدها .. انهد » ..

... ولفت حـكايتها البـلد والسبع عـزب والمركز ... ووصلت لكل النـاس ... قـال أخى ـ مرة ـ انه ضرب الأولاد وهم معهـا تحت جميزة الشيخ الطاهر ؛ يدخلون بها مقام الشيخ الطاهر بعد أن يطفئوا الشمع ويسكوا الباب ..

***

أخذونى فى أرجلهم وهم يندفعون الى الخارج ؛
هممت مع الضجة ... وتبعتهم بعد آن طارت الجوزة
من يدى ولسعتنى الماشـة فى وجهى وتحت الجمـيزة
العتيقة رميت نظرى معهم فى اتجاه المقام الطاهر ...
واستقر على كتلة سوداء يتجاذبها الأولاد ويصرخون ..
وضحكاتها مجلجلة فاقعة غريبة .. وتصرخ معهم . و ..

... وروعتنا فرقعة مفاجئـة ، شريط لهب مزق
الكلام فى اتجاه الكتلة السـوداء .. واختلط ضرب
النار بالأصـوات الهائجة وحـل الذعر والدركى يجعر
وسـطنا على خراب بيتـه ، والآخر — بأعلى صـوته
المشروخ — يعلن نهاية عاره وهو يقفز أمامنا فى حركات
جنونية ، ويضحك ، ويصرخ ... ويرمى البندقية —
الميزر — فى وجـه الدركى ؛ ثم يولى أمامنا ويغور فى
الظلام ...

***

ســـؤال

الشرق الأوسط ـ ١٩٨١/٤/٢٩

... لو وقف هو أمام النافذة ، وترك مكتبه ونفخ صدره بذرات الهواء ، ودقق .. فهو لا ينظر — كما يتخيل للجميع وقتها — الى الكرات الملتهبة ومركز الدائرة الملون ، ولا يشق نظره المجرى الذى يتوسط الكرتين .. يدقق هو فى البعيد ويسرح ... وتومض الدنيا للحظات ، وتعبس — يا للهول — وتومض الحبيبة فى القلب متسلطنة ، تمتد الى الكرات الدموية ومن الشريان التاجى كل الشرايين اليها تعود ..

عندما دقق فيه هذه المرة الأستاذ رئيس المبيعات كان الأمر يختلف ، سأله :

— تعرف بنات يا أستاذ .. ! ..

ويحدق بشدة ويعترف : « أى نعم .. هادية » .. فى البدء نظر الجميع وفى بدء البدء اهتزت الرؤوس وتقاربت ..

وتنحنح من عليه الدور « الأمور غير مفهومة » ..

والاجابة مفاجئة وغير متوقعة .. يخرج الأستاذ ورقة من جيبه ويمدها أمامه :

ـ اقرأ يا محترم ... !

وفى القلب يندب السؤال ، والاجابة تروح وتلح ، وتجيء على طرف اللسان ، هو ذاته يعرف وتزلزل البنت أعماق أعماقه ، تشقلب الكيان الكائن فتندب كرات الدم الحمراء والبيضاء منسحبة فى اندفاع نحو القلب ، يتضخم القلب بالملامح التى ينسجها آليا خارج الأذين الأيمن ..

وفرقعت طلقة فى الهواء ... خبط الأستاذ بقبضته السمينة فوق زجاج مكتبه وبرجم : « كلنا نحب ... لكن علنا هكذا ، جريمة » .. وصرخة .. وطبقة .. وعواء أطفال ونباح .. قام السيد (س) الى النافذة ، علا الصياح ، شد قامته ، من الكوبرى البعيد اندفعت الجموع تزن كخلايا النحل .. قال السيد (س) ويده تعلوا وتهبط فى نبرة حماسية :

ـ الرغيف ، مشكلة زماننا ..

استعجب الأســتاذ وقــام الى مكتبه ••• جذبه اليه ••• لكن النبرة الحماسية ازدادت حدة :

ــ الرغيف الرغيف الرغيف

ودقق السيد ، الأستاذ يزفر وينفخ •••

ــ آه أنت منهــم ••• رموز هــــذه يا ســيد اذن ••• ! •••

وسحب قلمه الأحمر وجرى به فوق أوراق ••• ازداد اندفــاع الشرارات فى الهواء • رجت الغرفــة فرقعة مكتومة •• صرخ السيد (س) واندفع خارجا •• صرخ خلفه بالورقة التى مشى فوقها بالخط الأحمر :

ــ مرفــوت •••

•• السيد (س) داخل الدائرة ، و « بلادى » وظهرت فرق جند تلوح ، قال « انصرنا » ••• وشاهد الأستاذ الشاب يهذى بكلام لا يفهمه والأيدى ترتفع من حوله ، تسقط اثنى ، ويدقــق ، تقوم بعد أن فقــدت

أشياءها الفاقعة . يتوافد الصـوت ويتكرر ، تشـتد الطلقات ، يتجه السيد (س) المرفوع فوق الزنود الى باب الادارة ، تصرخ الحشـود مرددة خلفـه ، يدق الأستاذ (ح) فى الخزنة ويشد يده على الزناد وعينـه على الناشنكاه وأسـفل منتصف قلب السـيد (س) المرتكز .. ويشدد . ويرجع الترباس مقدار السنتيمتر الواحد فقط وتخترق الهالة النارية منتصف الغرض ... والفرسان تحوط الدائرة وتضيق عليها الخناق .

المشـــق

روز اليوسف ٢٨ اغسطس ١٩٧٨

تسامر الليل والنجوم والدموع ... وتصرخ — لنفسها — جافلة :

— حين تهل الى ... تتبع خطوتى ؛ أبقى والموج بصدرى .. والكون رحيل .. الكون حدائق سفر تغرينى أن أدفن سرى فيك آرحنى خذنى فيك اليك .. كل عيون صديقاتى تغرز نصلا يشرخ عمق الصدر ..

يصرخ بين الآن والآن :

— آه « همت » ... ماذا قال الجو ، وكيف يحبك ... وهـل عيناه انغرزتا نحو النحر ؟ ... وأين السهرة كانت يا بنت ؟ ...

.. واحدة منهن تمد جهير الصوت بحل :

— فلنحك يا فتيات تجارب ...

ثم تميل الى بنصح قائلة :

— قـولى ... فالجلسـة مسـجلة لحبيبـك

يا « همت » ... أنعى نفسى : « حتما واسطة ! .. » .
لكن ... ما دام المواقع ... كونى واسطتى واسطة الخير ...

ثم ... تدور الجلسة .

— ٢ —

ــ انفتح الزور ... وانطلق الحس ...

وعملنا الـ « انتباه » .. وقال « صفا !!! » ..
قالها هكذا بالمد .. وانفجرنا ــ مرة واحدة ــ ضحكا، وانفجر فينا بموشحه :

قال انه الجنرال الأكبر حامل الوشاح ونجمة سيناء وهو أول من رفع العلم ... وقال « أهم شيء عندى النظام ... وبعدها تأسر المرأة التى علا وجهها العذاب فوق شفاه تبتسم .. » .

وقال انه خاض حرب اليمن ...

وأخرج من حقيبة بجواره لفة كبيرة ...
وفتحها ... ورفعها ــ فجأة ــ فوق رأسه .. وأخذتنا

رائحة الرأس الكبيرة ... وصرخ فينا :

ــ أخذتها مكافأة الاقدام ونوط الواجب ..

وقــال : « صفا !!! » .. ومدهــا .. وانفجروا ضحكا ..

قال واحد :

ــ هنا اذاعــة الـ B.B.C. نلتقى بالجنرال ، اسمك يا فندم :

ــ قنديل .. اسمى الصول قنديل .

وهممت فى فــزع ... وارتمى على صــدرى وهو يولول فى حزن حقيقى :

ــ اعذرنى يا ولدى .. أنا تعبان ..

ــ ٣ ــ

ــ قالت : « خطبوا همت ... ! »

وقالت : « وكتبــوا كتابهــا لواحــد غــير صفوت .. » .

وقالت : « أصلها عصبية .. » .

وهزتنى

وقالت : « أنت ــ يا ولد ــ تحبها » .

وفتحت ورقة احتفظ بها ... وتعجبت :

« تمنيت أن أكمل دورى للنهاية ... ولكن ماذا بيدى ... انه البذرة أو البركان الذى كان فى حاجة لى ... »

ومزقت الورقة ...

وقالت « ماذا يا ولد » .

جذبتنى الى الشاطىء ... وجاء الغليون ... نظرت الى النيل .. وضحكت ...

وقالت : « همت ضاعت يا ولد ... » .

وقالت : « ما أخبار الزواج » ؟ ..

وعندما هم الغليون قفزت الى الشاطىء ووقفت ... وأنزويت أمارس شيئا مشروعا فى راحة تامة ..

محاكمـــة

المجلة : ٢٥ فبراير ١٩٨٤

وعلى غير العـادة قطع المجلس صوت قاطع ؛ يصرخ : « يا أيوب » •• ! ••

•• حدثت همهمة كبيرة وأشرعت الرماح فى أيدى العســكر وهم يطبقون على العجوز انتظـارا لأوامر السلطان ••

غضب الشيخ العجوز ، دار حول نفسه •• والتفت الى السلطان مشوحا :

ـ قـل لهم ، اخبرهـم من أكون أو اطـلب ان يخلصوك منى ان كانت هذه رغبتك أو قل لهم مـاذا أريد ••

فى ذلك الوقت كان رئيس الدرك قد وزع أوامره، أغلق كافة الممرات والمنافذ وصعد فوق برج القلعة •

انفلت السلطان من بين مماليكه متجها الى الشيخ الواقع فى دائرة الحصار ، صرخ فيه وهو فى غاية النكد:

ـ وماذا تريد أيها الشيخ المخرف ؟ رمتك الأيام

علينا فوق دابة عرجاء نظرنا اليك وجعلناك قاضيا للقضاة فوق أرضنا المحروسة ، أنعمنا عليك بخمسة آلاف درهم لتصلح حالك وخلعنا عليـــك كسوتنا لتكون فى حظوة الشرف السلطانى وكتبنا الى سائر مماليكنا فى البرأنك صوتنا ليتردد ذكرك ويتجلى علمك .. وحسبنا انك ستباركنا كل المباركة وأن البشائر ســوف تزف لهذا وأن المجاورين سيزينون القاهرة زينة عظيمـــة ما عرف الناس مثلها .

قاطعه الشيخ فى اصرار :

ــ أنت تعرف بغيتى ...

... التقت نظرات العسكر المصطفين فى الساحة وعلت همهمة ، تذمر مجلس السلطنة ونزل الكلام ــ القاطع ــ مثل كتلة هوت فجـــأة من تلال المقطم فوق رؤوس الحاضرين ، والشيخ مستمر فى كلماته القاطعة :

ــ تجيبنا من أين لك بألف مسمار من ذهب على كل طرف مسمار عمامة موشاة من لون ؟ ومن أعطاك

البغال والخيــل والنوق والعبيد والرياش والطنــافس والضياع والياقوت واللؤلؤ والمرجان ؟

قاطعه دركى شد قوسه جهة قلبه :

ـ عفوا يا سيدى سلطان السلاطين ، ربما ...

وبالحماس نفسه والثبات ارتفع صوت الشيخ وهو يشير الى مجلس السلطنة :

ـ ومماليكك الذين يســامرونك وتتسلى معهم بالرمــاح والنشاب ، كيف يتحكمون فى عباد الله وهم أرقاء لدى المسلمين ؟ وكيف تتركهم ينهبون تحت ستار تمويل العسكر فى زمن عز فيه القوت وحسد النــاس غرابا وجد ما يسد قوته ؟

ووســط صيحات الاستنكار أصر الشــيخ أن يمارس صلاحياته باعتباره قاضيا للقضاة ، نادى بابطال كافة العقود التى جرت بخصوص المماليك من بيع وشراء باعتبارهم أرقاء من الوجهة الشرعية ، وقال :

ـ سنقطع الخطبة عن اسمك يا أيوب الى أن يتم الله الأمر ، وليحدث بعدها ما هو مكتوب ..

وضح الأمر الخطير اذن ... انزعج مملوك شاب وهمس فى أذن زميله :

ـ كيف ينادى علينا هـذا المخرف ويبيعنا ونحن ملوك المحروسة ؟

***

صباح أحد الأيام كان مشهودا : ازدحمت شوارع القاهرة وتزينت بزينة خاصة ، فتحت ـ لأول مرة من زمن طويل ـ محـلات الصـناع من غزالين وعقادين ونساجين وصباغين وخياطين وصاغة وعطـارين وقربية وصانعى مناخل وأقفال ، رفع أصحابها مصاحف ورايات فى انتظار الموكب الذى ما له مثيل .

مرت دقائق انتظار ، وقرب صـوت الطبل ، بان الموكب الغريب وهو يشق الشوارع المحشورة بالخلائق، يتقدمه السلطان على بغلة صفراء عالية ، قدامه قاضى القضاة الشيخ وبجواره دفتر داره وجمع القضـاة ، لاقته الأبـواب المفندقة ـ للمرة الأولى من زمـن ـ بالشموع .. امتدت الأيدى من المشربيـات تنثر على

الرؤوس فضة وبخورا ، وانفتحت القلوب بالدعاء لقاضى القضاة وسلطان العلماء ..

ما ان طلع الموكب جهة القلعة حتى وجفت القلوب خيفة من دهاء المماليك على أميرها الشيخ وتواترت صور البلاء والجور والحيل المفضوحة .

فى حوش القلعة مضى الشيخ فى تنفيذ ما نادى به ، نصبوا له منبرا صعد فوقه قرأ على العامة انه ينادى على المماليك البرجية ، وتلاهم بالمماليك البحرية ثم كافة طوائف مماليك المحروسة لبيت مال المسلمين ... من يشترى مملوكا فهو له ، يعتقه لوجه الله فهو حقه ، يستخدمه فهو حقه .

وارتفع صوته وهو ينادى واحدا بعد واحد . الذى يجده شابا قويا يغالى فى ثمنه ، ويقبض ، وبجواره دفتر داره يقيد فى حساب بيت المال .

دام الحال ثلاثة أيام متواصلة ، وفى اليوم الرابع وعند منتصف النهار ـــ قيد الدفتر دار ثمن آخر مملوك نادى عليه الشيخ الذى كان غارقا فى عرقه

وما رحم نفسه واستمر صوته القاطع ينادى فى جمهرة الناس بخراب مواطن الأنس والخلاعة والمسكرات على أن يعم الأمر سائر ديار المحروسة •• وتوجه الى الله بالدعاء لاصلاح أمر الراعى والرعية •••

صباح اليوم الخامس وعلى غير العادة ازدحمت الشوارع والحارات والمنافذ وفتحت الدكاكين والحوانيت أبوابها ، زادت حركة البيع والشراء وعم الناس الأمان ، توافدت جماعات جهة بيت الشيخ تحمل عطاياها، طرقت الباب مرات ومرات انتظارا لخروج الشيخ ، فى الوقت نفسه كان شيخنا الجليل أمير علماء عصره وقاضى قضاة المحروسة وما جاورها من ديار فوق دابته العرجاء تاركا وراء ظهره هضاب المقطم العالية •• ويقال ان المجاورين وقاطنى الأروقة فى الأزهر يتجمعون قبيل صلاة كل يوم جمعة وينطلقون جماعات من صحن الجامع الى بيت الشيخ منتظرين خروجه فى طلعته البهية ••

وانهم حتى الآن ما زالوا ينتظرون ••••

الكاتب فى سطور :

- مرعى مدكور
- دكتوراه فى فلسفة الاعلام
- عضو هيئة تدريس الصحافة بجامعة الأزهر
- أصدر : « الهزيمة .. امرأة » مجموعة قصصية عام ١٩٧٨

: « الاعلام الاسلامى الطباعى فى الدول غير الاسلامية » ـ دار المعارف : ١٩٨٥م

صدر من هذه السلسلة

	العنوان	النوع	المؤلف
١	الحلم والسفر والتحول	شعر	د. صابر عبد الدايم
٢	البحث عن حقيقة ما يقال	قصص	رفقى بدوى
٣	شهريار	مسرحية شعرية	أحمد سويلم
٤	رذاذ الليمون	قصص	فتحى سلامة
٥	علامة الرضا	قصص	محمود عوض عبد العال
٦	خريف الأزهار الحجرية	قصص	د. ماهر شفيق فريد
٧	القصة القصيرة فى السبعينيات	دراسة	يسرى العزب
٨	الجهينى	رواية	مصطفى نصر
٩	النيل ينبع من المقطم	قصص	فؤاد حجازى
١٠	زمن الفيضان	قصص	على عيد
١١	من سيمفونية العشق	شعر	فوزى خضر
١٢	سيف الله خالد بن الوليد	مسرحية	محمد أبوالعلا السلامونى
١٣	الليالى الطويلة	قصص	د. مرعى مدكور

فى اعــدادنا القادمــة

ويضـــيع البحـــر	شـــعر	احمد فضـــل شبلول
بينى وبين البحر	شـــعر	عبد المنعم عواد يوسف

فهـرس

رقم الايداع ٤٩٥ /٨٥
٩ ـ ٠٦٥٦ ـ ٠١ ـ ٩٧٧